المذاهب الفكرية

الديمقراطية وموقف الإسلام منها

أسامه أحمد بن صغير أحمد
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(الحلقة النهائية)

ضمانات الحقوق والحريات في الديمقراطية، وموقف الإسلام منها.

هنا ينبغي أن أذكر أولاً الضمانات التي ينفرد بها النظام الإسلامي قبل بيان موقف الإسلام من الضمانات التي توجد في النظام الديمقراطي، فالإيمان بالله والتصديق برسوله هي أكبر ضمان وأعظمه الذي يدفع المؤمنين إلى الالتزام والتطبيق لهذا الدين الحنيف، بل المسلم يجود بأغلى ما يملكه وهي روحه ونفسه في سبيل إعلاء كلمة هذا الدين فحري به أن يكون في قمة الالتزام به، فعقيدة الحاكم والمحكوم من إيمان بالله تعالى، والخوف من عقابه، والرغبة في صوابه خير حامل لكل منهما على الالتزام بمبدأ سيادة الشريعة الإسلامية في جميع تصرفاتها، ورقابة الإيمان على السلوك الفردي رقابة لا توازيه أية رقابة، والأدلة عليه من الوقائع في التاريخ الإسلامي كثيرة لا تعد.

أسوق هنا حادثاً وقع في حياة النبي ﷺ حيث جاء ماعز بن مالك الأسلمى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى. فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت. فرده الثانية فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال « أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ».فقالوا ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا

بأس به ولا بعقله فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم. قال فجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى. وإنه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً فوالله إنى لحبلى. قال « إما لا فاذهبى حتى تلدى ». فلما ولدت أتته بالصبي فى خرقة قالت هذا قد ولدته. قال « اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ». فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها"(١).

وغيرها كثير من الأمثلة يؤكد أن قوة الإيمان الراسخ هي أكبر ضمان لمبدأ سيادة الشريعة، وبما أنه قد يخون الأمين، وتتغلب عليه الشهوة والهواء، فليس الإيمان هو الضمان الوحيد في هذا الباب، بل ثمة ضمانات أخرى تعمل لتحقيق سيادة الشرع كولاية المظالم وهي

(١) صحيح مسلم:٥/ ١٢٠،(٤٥٢٨).

قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة(٢)، وكذلك ولاية الحسبة، والحسبة أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله(٣)، وكان الهدف من وراء هذه الولايات الحفاظ على سيادة الشريعة الإسلامية وحمايتها وردع كل من يخل بهذا المبدأ(٤).

فتعاليم الإسلام تجعل المرء يشعر ويحسّ بمسئوليته أمام الله تعالى، وتوجد في داخل نفسه المراقبة الذاتية لله تعالى التي لا تصل إليها أيّ قوة غير قوة مراقبة الله تعالى، التي يتغير بموجبها سلوك الإنسان نحو معاملته لربه ومعاملته لإخوانه المسلمين، بل ومع غير المسلمين، بل ولن يقاربه أيّ تنظيم بشري، وفرق بين سلوك ينتج عن مراقبة الله وخوفه، وسلوك ينتج عن غيره، فما مِنْ شخص يزعم أنَّ الديمقراطية هي

(٢) انظر "الأحكام السلطانية" للماوردي:١٣٠.
(٣) انظر المرجع السابق:٣٤٩.
(٤) انظر "الديمقراطية وموقف الإسلام منها" لمحمد نور:٤٥٦-٤٧٠.

التي تحقق السعادة للشعوب، أو أنها أرحم من التعاليم الربانية، ما من شخص يزعم ذلك إلّا وتجده إمَّا جاهلًا جهلًا مركبًا، وإمَّا ملحدًا لا يعرف عن حقيقة الإسلام شيئًا، أو مخدوعًا بشعارات الديمقراطية البرَّاقة، لم يتعظ بما يشاهده من حال بلدان دعاة الديمقراطية(١)

فالذي عندنا من الحقوق والحريات خير خالص لا شر فيه، وهو في الوقت نفسه خير كامل لا نقص فيه، وبالتالي فلا حاجة بنا إلى غيره، ولا رغبة لنا فيماسواه.

أما الضمانات التي ينادي بها النظام الديمقراطي من أجل الحفاظ على الحقوق، وسلامتها من العبث والانتهاك كفصل السلطات، وسيادة القانون، والرقابة بأنواعها، ووجود حزب المعارضة فهي كلها ترجع في الأخير إلى فصل الدين عن الدولة، وتجعل الشعب هو المشرع والمقنن وواضع الدساتير والنظم، فالإسلام لايجيز الفصل بين الدين والدولة، بل الدين الإسلامي هو الشامل والمهيمن على كل أمور الحياة، وما لم تصدر عنه فإنها تعتبر من الضلال، ومن اتخاذ البشر بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله تعالى، وأنه جعل مصدر التشريع هو الوحي من الله سبحانه وتعالى، وهو ما نزل على سيدنا محمد ﷺ من القرآن والسنة وما أرشدا إليه، وقد نفى الإسلام الإيمان عن أي إنسان أو جماعة تلجأ في الاحتكام لغير الله سبحانه وتعالى، والاحتكام إلى مفاهيم الناس وعاداتهم وتقاليدهم قال الله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] والآيات فيها كثيرة كما سبقت الإشارة إلى بعضها في الصفحات السابقة فاكتفي بها.

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منهاللعواجي:٢/ ٧٨٤.

وقفات مع الديمقراطية والإسلام.

العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية.

هي علاقة الفرع بأصله، أو علاقة الثمرة الخبيثة بالشجرة التي أثمرتها، فالعلمانية هي "مذهب من المذاهب الكفرية التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في الدنيا، فهو مذهب يعمل على قيادة الدنيا في جميع النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والقانونية وغيرها، بعيدًا عن أوامر الدين ونواهيه"(١)

والديمقراطية تقوم أساساً على إسناد السيادة أو السلطة العليا للأمة أو الشعب وهذا يعني أن الكلمة العليا في جميع النواحي السياسية إنما هي للأمة أو الشعب. وعلى ذلك يمكننا القول: إن الديمقراطية مذهب من المذاهب الفكرية التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في جميع النواحي السياسية، فالديمقراطية إذن هي التعبير السياسي أو الوجه السياسي للعلمانية، كما أن الاشتراكية والرأسمالية تعبير اقتصادي عن العلمانية(٢).

شبهة عدم شمول الشريعة الإسلامية، والرد عليها.

مما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية عامة لجميع البشر، وشاملة وحاوية لأحكام الوقائع الماضية كلها، والمشاكل الجارية جميعها، والحوادث التي يمكن أن تحدث بأكملها فلم تقع واقعة، ولا تطرأ مشكلة، ولا تحدث حادثة إلا ولها حكم في الشريعة الإسلامية.

ولكن الأسف أن هناك بعض من يدعي بعدم شموله لكافة جوانب الحياة الإنسانية، ومن منطلق هذه الشبهة قالوا بالديمقراطية، وفصل الدين عن السياسة، وعدم صلاحية نظام الحكم في الإسلام للتطبيق في العصر الحديث فالبراهين الساطعة والأدلة الواضحة من القرآن والسنة تخالفهم، يقول تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ

(١) العلمانية وثمارها الخبيثة ص ٨ بواسطة "حقيقة الديمقراطية لمحمد الشريف:٢٤.

(٢) حقيقة الديمقراطية لمحمد الشريف:٢٤.

لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣] ، وقال﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

وقال ابن كثير: "هذه أكبر نعم الله- عزوجل-على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم-صلوات الله وسلامه عليه- ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه"(١)

فالقول بأن النظام الذي جاء بها الإسلام في الحكم لايصلح للتطبيق في هذا العصر ينطوي على دعوى خطيرة ومرفوضة من أساسها لأن "شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان، لأنها- بشهادة الله- شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان، في جيل من الأجيال، في مكان من الأمكنة، كما كانت تجيء الرسل والرسالات"(٢).

فالشريعة الإسلامية شاملة لجميع نواحي الحياة، فلا نقص فيها ولا زيادة(٣).

أقسام المنادين بالنظام الديمقراطي في بلاد المسلمين.

لقد نادى بالديمقراطية واعتقد بصوابه، ودعا إليه كثير من المسلمين على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، وهم على أصناف:

١- صنف-وهم الأشد خطرًا - من يدعو إلى الديمقراطية وهو على علم بمبادئها وبأصولها إيثارًا لها على النظام السياسي في الإسلام، وهذه الطبقة فيها كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين، ومن يسمونهم المفكرين.

وهؤلاء لا خير فيهم لدينهم الإسلامي ولا لأمتهم المسلمة.

٢- ومنهم من ينادي بالالتزام بها

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢/ ٨٤٣.

(٣) انظر نقض النظام الديمقراطي لمحمود الخالدي: ١٤٥- ١٦٠.

عن جهل وحسن نية في الأغلب، مع اعتقاد أن الإسلام وتعاليمه خير منها، وأن فائدتها حسبما يتصوّر أنها تحطّ من كبرياء الطبقة العليا، وتفسح مجالًا أمام الطبقات كلها لتنادي بآرائها في الإصلاح دون خوف محاسبة أحد لهم، أو غير ذلك، وهؤلاء انخدعوا بالشعارات البراقة المعلنة في الديمقراطية.

٣- وبعضهم ينادي بها لاعتقاده أنها لا تعارض تعاليم الإسلام، خصوصًا بعد أن قنعته الدعايات الغربية بذلك، فهم جمعوا بين حسن النية وسطحية التفكير فأرادوا أن يبينوا للناس - بدافع حسن النية أو الغيرة على الدين - أن الإسلام قد سبق الديمقراطية بأربعة عشر قرناً من الزمان، وأن الديمقراطية قد جاء بها الإسلام وطبقها الخلفاء الراشدون.

٤- صنف-وهي تمثل السواد الأعظم من المتكلمين بالديمقراطية- لاتدرك حقائق الأمور، بل هي طائفة مقلّدة تردِّد ما تسمعه عبر وسائل الأعلام المرئيةوالمسموعة والمقروءة دون أية معرفة أو إلمام بمفاهيمها وأهدافها.

٥- طائفة- وهم دعاة- ظنوا أن الديمقراطية قد توفر لهم قدرًا من الحرية يستطيعون من خلاله أن يقوموا بواجب الدعوة، فنادوا بها(١).

هذا، ونسأل الله الكريم من فضله العظيم أن يجعلنا ممن يستمع القول ويتبع أحسنه، ويدافع عن الإسلام والمسلمين بلسانه وقلمه، ونسأله الإخلاص في القول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

***

(١) انظر"المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها: للعواجي:٢/ ٨٠٢-٨٠٣، و"حقيقة الديمقراطية" لمحمدالشريف:٢٩-٣٢.